1- اكتشاف عمق القارة الإفريقية

هناك ثلاثة أنهار كبرى تشمل إفريقيا جنوب الصحراء، وهي: النيل في امتداده إلى البحر المتوسط شمالا، ونهر النيجر، ونهر الكونغو، وتظل فائدتها الملاحية محدودة بسبب العوائق المختلفة في الشلالات والجنادل والحواجز الرملية والتقلبات الفصلية في منسوب مياهها. أما الأنهار الأقل شأنا مثل شيريه، وفولتا والسينغال، وغينيا، فنادرا ما استخدمت حتى الأزمنة الحديثة. وقد جاء كشف القارة الإفريقية مع بداية القرن 19 في سياق تمهيد الطريق لحركة الاستعمار التي شملت معظم أجزاء القارة[77]. وقد قسم العديد من الكتاب مراحل الكشف إلى أربعة:

- المرحلة الأولى: هي مرحلة اكتشاف الجزر والسواحل من القرن 16 إلى حدود منتصف القرن 18؛ خلال هذه المرحلة اقتصر عمل الرحالة ومغامري أوروبا الغربية بزعامة البرتغال على الكشف عن سواحل القارة وجمع قسط ضئيل من المعلومات عن أحوالها الداخلية[78].

- المرحلة الثانية: مرحلة الكشف الجغرافي؛ وتبدأ برحلات البريطاني جيمس بروس James Bruceفي سياحته للكشف عن منابع النيل فيما بين 1768 و1773م، وتنتهي بوفاة لفينغستون[79].

- المرحلة الثالثة: مرحلة الكشف السياسي؛ وهي التي ابتدأت برحلات البريطاني هنري ستانلي منذ 1871م إلى الكونغو، وانتهت بتقسيم القارة الإفريقية بين القوى الأوروبية الاستعمارية في مؤتمر برلين 1884-1885م[80].

- المرحلة الرابعة: مرحلة الكشف العلمي؛ وقد بدأ بأغراض استعمارية للكشف عما تخبئه الأرض الإفريقية من خيرات لاستخراجها واستغلالها[81].

إن ما يُهمنا من هذه المراحل الأربع هما المرحلتان الثانية والثالثة، إذ هما من مكنا الأوروبيين من التوغل داخل القارة ومجاريها وأنهارها وغاباتها، حتى إذا ما تم لهم ذلك اجتمعوا في مؤتمر برلين لتدارس كيفية اقتسام الغنيمة الإفريقية فيما بينهم بأنصبة تلائم قوة كل طرف؛ فالحركة الكشفية التي سنهتم بها في هذه الفقرات هي حركة كشف الأنهار الإفريقية بشكل عام، دون الاقتصار على إفريقيا الغربية وحدها، وذلك بقصد معرفة أعماق هذه القارة التي ظلت إلى حدود أوائل القرن 19م شبه مغلقة أمام الأوروبيين ولم يكن معروفا منها سوى الأجزاء الساحلية.

2- التنافس الاستعماري الأوروبي على القارة الإفريقية

إلى حدود سنة 1850 لم يكن الأوروبيون قد نفذوا إلى عمق القارة الإفريقية، واستمر حضورهم على المناطق الساحلية. وانطلاقا من هذا التاريخ أصبح التنافس الأوروبي على الأراضي أكثر تنظيما وأكثر شراسة إلى درجة أشعلت فتيل الصراع بين القوى الأوروبية المتنافسة. ومن أجل تفادي الوقوع في نزاعات مفتوحة، دعا المستشار الألماني بيسمارك إلى عقد مؤتمر برلين لسنة 1885 لتقسيم القارة الإفريقية. وقد رسم هذا المؤتمر خريطة الطريق لاحتلال إفريقيا وتقسيمها بين القوى الأوروبية الكبرى معتمدا على معايير أساسية، منها:

- رسم الخريطة السياسية للقارة، حيث أسست كل دولة أوروبية مستعمراتها انطلاقا من السواحل مع الامتداد إلى عمق الأراضي الإفريقية، وهو ما أتى في أحيان كثيرة على حساب التجانس الجغرافي والسياسي والاجتماعي والثقافي للشعوب المستعمرة.

- توجيه نظام المبادلات بين الدول المستعمرة والمستعمَرات، حيث أصبح لكل دولة أوروبية الحق الأحادي في الاستئثار بالمقدرات الاقتصادية لمستعمراتها، كما فرضت لغاتها وقوانينها وتعليمها، واستقبلت نخبا من الطلبة الأفارقة والعمال والجنود المقاتلين المساهمين إلى جانبها في الحروب الكبرى.

انعقد مؤتمر برلين فيما بين 15 نونبر 1884 و26 فبراير 1885 وحضره مندوبو أربع عشرة دولة هي: النمسا والمجر وألمانيا وبلجيكا والدانمارك وإيطاليا وهولندا والبرتغال ورومانيا والنرويج والدولة العثمانية والولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا وفرنسا[94].

واتسع نطاق منافسات هذا المؤتمر الذي انعقد أساسا لتدارس مسألة صراع القوى الاستعمارية على نهر الكونغو ليشمل الاستعمار الأوروبي في إفريقيا عامة، وقد حدّد بيسمارك أهداف هذا المؤتمر في موضوعات رئيسية هي:

- حياد إقليم الكونغو وحرية الملاحة والتجارة فيه.
- حرية الملاحة والتجارة في نهر النيجر.
- عدم فرض أية دولة حمايتها أو سيطرتها على المناطق الساحلية في إفريقيا دون أن تعلم بذلك الدول الأخرى التي وقعت على هذا الاتفاق.
- عدم إعلان أية دولة الحماية على منطقة من القارة الأفريقية دون أن تكون هذه الحماية مؤيدة باحتلال فعلي[95].

يعطي مؤتمر برلين، سواء في مناقشاته أو في نتائجه، صورة واضحة عن الصراعات التي كانت تدور بين القوى الكبرى في أوروبا آنذاك، خاصة ألمانيا وفرنسا وإنجلترا، أما باقي الدول المشاركة فكانت تسير في فلك واحدة من هذه الدول أو بِوَحْي منها[96].

3- حركات المقاومة في بلاد السودان

كان اغتصاب إفريقيا القضية الكبرى التي حركت الأوروبيين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بناءً على قرارات مؤتمر برلين. وبالرغم من أن إفريقيا كانت قد أنهكتها قرون من تجارة العبيد، فإنها كانت أبعد من أن تكون سهلة المنال لمن يريد استعمارها من الأوروبيين. وقد شهدت هذه المرحلة ظهور زعامات وحركات حاولت أن تؤسس تجموعات سياسية تجاوزت في بنيانها مستوى القبيلة. وقد ركزت كل من فرنسا وبريطانيا على الخصوص نشاطهما العسكري في كل من بحيرة التشاد ونيجيريا وأعالي أنهار النيجر والسينغال وگامبيا[97]. إنها المنطقة التي نشأت فيها دار الإسلام الأولى في إفريقيا الغربية وظهرت فيها ثلاث دول إسلامية. في القرن التاسع عشر، هي خلافة سوكوتو في شمال نيجيريا. وخلافة حمد الله في ماسينا وخلافة التيجانية بقيادة الحاج عمر الفوتي في والسينغال وگامبيا وماسينا[98]. ويمكن وصف أهم نماذج حركات المقاومة الإسلامية التي نشأت ببلاد السودان في الآتي:

- في نيجيريا: تكونت الساكنة في الشمال في معظمها من المسلمين. خصوصا مدن سوكوتو وكاتسينا وكادونا وبزاريا وبوشي، وشكلت سوكوتو مركز سلطة قوية من الفولاني بزعامة عثمان بن فودي (عثمان دان فودو) على الطريقة القادرية[99]. وصل صدى دعوة ابن فودي إلى السلطان المغربي المولى سليمان. وبلغه ما عليه الشيخ عثمان، فأبدى تجاوبه معه، وإعجابه بحركته. وكتب في هذا الشأن رسالتين سنة 1225هـ وجه الأولى إلى محمد الباقري أمير أهير الواقعة حالياً في النيجر، والثانية باسم الشيخ عثمان بن فودي نفسه يبارك له فيها عمله ويدعو له بالنصر والتوفيق[100].

وقد أخضعت إمبراطورية الفولاني الإسلامية أو إمبراطورية سوكوتو دويلات الهوسا المتعددة في بورنو وكانو وغيرها. وبالتالي أصبحت تسيطر على مجموع الأراضي التي تشكل اليوم دولة نيجيريا. وكان لزاما على القوات البريطانية الراغبة في احتلال هذه الجهات أن تواجه إمارات الفولاني إلى أن استطاعت إخضاعها بسبب عدم تكافئ موازين القوة بين الطرفين.

- وفي أعالي أنهار النيجر والسينغال وگامبيا عندما كانت فرنسا تتوغل في غرب إفريقيا خلال النصف الثاني من القرن 19 انطلاقا من المحيط الأطلسي غربا إلى ما بعد بحيرة التشاد شرقا، واجهت مقاومة عنيدة من قبل عدة زعامات إسلامية. قامت تتدفاع عن المسلمين في أعالي أنهار النيجر والسينغال وگامبيا. وأهم القادة المجاهدين بهذه الأصقاع من السودان الغربي: الحاج عمر بن سعيد الفوتي، والشيخ محمد الأمين، وساموري توري. استطاع الحاج عمر الفوتي أن يشكل مملكة من

أراضي سينغامبيا وماسينا وأسس خلافة تيجانية وتلقب بالخليفة خاتم الأولياء[101].
وقد ارتبط الحاج عمر بالمغرب في العديد من محطات تكوينه العلمي والصوفي والسياسي، ثم في المرحلة الثانية من مساره حين أعلن الجهاد وأقام الدولة التيجانية[102].
ومع أن خلفاء الحاج لم يستطيعوا الحفاظ على المملكة بفعل تفوق الجيش الفرنسي في العدد والعدة الذي كان سببا في إسقاط كل هذه الزعامات وإخضاعها للاحتلال الأجنبي. فإن مجهودات هؤلاء القادة المسلمين قد رسخت العقيدة الإسلامية في نفوس أهل السودان الغربي، وجعلت روح الإسلام حية بينهم سواء أثناء الاحتلال الأوروبي أو بعد استقلال دول إفريقيا جنوب الصحراء[103].